أشياء لا نستطيعها

صعد (كمال) الباص عائدًا من عمله، كان الباص مزدحمًا كالعادة، قطع التذكرة، وبالكاد وجد مكانًا يقف فيه بين أكوام البشر المتراصة بجانب بعضها؛ شعر باختناقٍ من اختلاط رائحة العرق والسجائر والأنفاس، وضيق المكان.. ولكن ما باليد حيلة، فعمله في مصنع الغزل والنسيج لا يُدِرُّ عليه إلّا القليل، وهو من أسْرةٍ تتأرجح بين خط الفقر والستر، لم يحظَ يومًا برفاهية أنْ يركَب سيارة خاصة، تمتم من بَعد هذا الخاطر.. «الحمد لله».. جال بعينيه بين الركاب، فبعضهم يغادر، والآخرون يرتِّبون أوضاعهم من بعدهم، شاهد رجلًا عجوزًا كاد أنْ يسقط على الأرض من التدافع، ورَأَى أحدهم وهو يحاول الالتصاق بسيدة تحمِل أغراضًا، فما كان منها إلّا العويل والصراخ، وقذفِهِ بأبشع الألفاظ حتى شدَّت انتباه الناس فبدءوا بالصراخ فيه، ودفعه بعيدًا عنها.. مشهد يتكرر، اعتادت عليه عينيه، اختلس النظر من النافذة، ها قد اقترب من المنزل؛ دفع الركاب بحذر حتى وصل للباب، وما أنْ توقَّف الباص حتى قفز سريعًا، قبل أنْ تدفعه أكوام البشر، وكأنها تلفظه من حقل النار، أشعل

سيجارته، وصعَد درجات السلم المتهالكة، وكلما اقترب من باب الشقة، اقترب صوت أحاديث أهل الدار.. أمه وأخوته، فتح الباب فوجد المشهد كما كان يتخيله.. أمه الغالية بجلبابها البسيط، و(عادل)، و(منى) أخوته، (عادل) ما زال في الجامعة، أما (منى) فهي في الشهادة الإعدادية.

ـ مساء الخير يا أمي.

ـ أهلًا يا ولدي.

قالتها باقتضاب.

أدار (كمال) عينيه بينهم، ففهم أنَّ هناك خطبًا ما.

ـ ما بكِ يا أمي؟ ماذا جرى؟

ـ ابن عم أبيك، الحاج (فؤاد) سيزوِّج ابنه (مدحت) غدًا.

ـ لماذا؟

ضحك (عادل) و(منى) بصوت عالٍ، فرمقتهما الأم بنظرة نارية، ثم أدارت وجهها لـ(كمال)، وقالت:

ـ ما هذا السؤال يا (كمال)؟

ـ لا يا حبيبتي لم أقصد، ولَكِنْ تعجَّبت من أهمية الخبر.

قالها وهو يغمز لـ(عادل) و(منى) بسرعة، فكتما الضحكات سريعًا عن وجه الأم.

ـ أخبرتني بذلك (سنية) زوجته منذ قليل، وقالت أنَّ الزفاف ليلًا، وعَقد القَران بعد صلاة الظهر، لذلك علينا السفر الآن.

ـ ماذا؟!

قالها متفاجئًا.. فالفجر لا يفصلنا عنه غير سويعات.

استطردت الأم:

ـ أجل، لا مجال للتأخير حتى نَحضر الاحتفال من أول اليوم، سنقضي الواجب، ونعود في ذات اليوم.

تنهد تنهيدة انزعاج، فهذا يوم الخميس، وغدًا يوم الجمعة، يوم الإجازة الوحيد في الأسبوع.. بهذا الشكل سيقضيه سفرًا مِن وإلى أسيوط.. ياالله!

أكملت الأم:

ـ سأرتدي ملابسي، ونذهب أنا وأنت.

ـ حاضر يا أمي.

لم تنتظر أنْ تسمع منه الإجابة، فقد نهضت، ودلفت غرفتها سريعًا.

جلس (كمال) على الأريكة ينفخ ما تبقَّى من السيجارة، ويفكر في هذا المشوار المفاجئ، فمنذ وفاة والده لم يذهب هناك.. كان في التاسعة من عمره لمَّا غادرها للقاهرة، تطلَّع بنظره إلى (عادل) و(منى)، وقال لهما:

ـ كونا على قدر المسئولية.. لا خروج من المنزل نهائيًا، ولا خلافات.

أومآ برأسيهما بالموافقة، غير أنه كان يعلم أنهما لن ينفِّذا ما أشار به.

خرجت الأم مرتدية رداءها المعتاد، لم تشترِ غيره منذ سنوات، وكلما خرجت ارتدته، نظر لها (كمال)، وقال في نفسه:

ـ بِئسًا للفقر.. «لو كان رجلًا لقتلته».. مقولة «عليّ بن أبي طالب» ـرضي الله عنهـ.. لكنت قتلته بيدي، وليس بالسيف يا إمام.

أوصت الأم الأخوين، وتركت لهما القليل من المال، وأشارت له ليغادرا المنزل.

ركبا الباص للموقف حيث سيارات الأجرة، وصلا موقف (عبُّود) فانتقى (كمال) سيارة كان صاحبها رجلًا طاعنًا في السن، دار بينه وبينه فصالًا على الأجرة، واستقر على تسعين جنيه، أدخل أمه سيارة (البيجو) وجلس بجوارها، انتظرا بعض الوقت حتى امتلأت السيارة، وتحرك بهم السائق في رحلتهم الطويلة إلى أسيوط.

السفر ليلًا كان سببًا لتنام أمه على كتفه، بينما كان ينبش هو في ذاكرته عن أسيوط، مَسقط رأسه وعائلة أبيه التي جافتهم بعد وفاة والده شابًا، تذكَّر يوم وفاته، وخلافات أمه معهم، ومعاملتهم السيئة لها، حتى أنها آثرت تربيتهم في هدوء، والرحيل بهم بعيدًا عن هذه الأجواء المشحونة، رغم ضيق الحال، ومع ذلك لم تَقطع الرحم، وظلت على اتصال بهم، ودائمًا ما كانت تطلب من (كمال) وأخوته ودهم، لأنهم في الأصل أهلهم، مهما حدث، ومهما كان.

مع اهتزاز السيارة المستمر، أخذت عيناه قرارًا بالنوم، ولكن ظلت الذكريات تطارده من الزوايا البعيدة المنسيَّة، وتتسرب معها لصدره، فينقبض قلبه بالحنين والأوجاع لمواقف يتذكرها.. ظل هكذا حاله حتى انقضت الرحلة ووصلوا، فالسائق المُحنك سلك طريق الجيش، فاختصرعليهم الساعات، ووصل لبيت الجدّ الذي يقع بالجوار من محطة المطافئ الخاصة بالمدينة الهادئة فجرًا.. المنزل مكوَّن من طابقين، كل طابق على الطراز القديم من الأسقف العالية، والشبابيك المرتفعة، والجدران المتآكلة.

دخلا المنزل فاستقبلهما أبناء عم والده، وبعض من الشخصيات التي يجهلانها، كان اللقاء فاترًا، يتناسب مع الجفاء الذي اتخذ من قلوبهم مأوى له.. جلس (كمال) ووالدته بين الحضور، دار بعينيه خِلسة في ربوع الدار، فسرَت قشعريرة حنين هاربة من تِلكم الأكوام التي نبتت في صدره.. هنا كان يلعب مع أبناء عمومته، وهنا جلس أبوه.. كل شيء في المنزل ظل كما كان، لم يتغير، ترى هل يتذكره المنزل كما يتذكره هو؟!

قال الحاج فؤاد:

ـ هيا يا بُني لترتاح أنت والوالدة قليلًا.

وأشار إلى أحدهم ليرافقهما للطابق العلوي، قال (كمال) في نفسه:

ـ الحمد لله، أنه شعر بحاجتنا للنوم.

صعدا درجات السلم، وكلما صعدا درجة، كان أزيز الخشب فيها يئن من حِمل الزمان، ومرارة الأيام.. قطعا مع مرافقهما الردهة الطويلة، ولما وصلا لأول الغُرف، أشار للأم، وفتح لها الباب، فدخلت لترتاح قليلًا، وتنام، ثم أشار إلى (كمال) بغرفة على اليسار، فأومأ له شاكرًا، واتجه لها، وفتح الباب ودخل.

كانت الغرفة رثَّة الأثاث، تعلوها بعض الأتربة، تذكرها من الماضي البعيد.. الفراش القديم، والمكتب المتهالك، وصوان الملابس المكسور ذو الباب الواحد المستند على الجدار، لكن جُل ما خطف عينيه وعقله، كانت اللوحة المعلقة على الجدار تحت الفراش.. لوحة «الطفل الباكي» الشهيرة، تلك اللوحة التي رسمها الفنان الإيطالي (جيوفاني براغولين) والتي لاقت انتشارًا واسعًا، في ستينيات القرن الماضي، تذكرها، وتذكر أنه كان ينام في هذه الغرفة وهو صغير كثيرًا، اقترب منها، كانت يعلوها

التراب قليلًا، ربما لم تُنظف جيدًا كباقي الأثاث، أكثر من عشرين عامًا، لكنها لا زالت كما هي.. الطفل الصغير بملامحه الحزينة.. بكائه ودموعه المتساقطة، مشى بيده على شعره؛ شَعَرَ بنعومة ملمسه، عينيه الزرقاء اللامِعة، والدموع المرسومة أحسها دافئة.. هز رأسه وقال بصوت عالٍ:

ـ تهيؤات.

رمى بجسده على الفراش، وهو يقول:

ـ كفاني تخيلات.. عدم نومي، والمشاعر المختلطة، دفعت بي لسرداب الهذيان.. لأنم قليلًا.. لا بد لي من الراحة قبل صخب الاحتفالات.

ما أنْ أغمض عينيه، حتى سمع صوتًا يقول:

ـ ستتركني وتنام؟!

فتح عينيه بفزع وأدارهما في الغرفة.. لا يرى أحدًا فيها غيره، ولكن الصوت كان حقيقيًا.. أغلق عينيه مرة أخرى فجاءه الصوت واضحًا وضوح الشمس في النهار:

ـ أرجوك، لا تفعل.

سقطت دمعة على قميصه، فرفع بصرة للوحة والصغير والدموع المتساقطة منه، نهض (كمال) سريعًا، غير مصدِّق.

ـ أنت حقيقي؟!

ـ .....

ـ أأنتَ فعلًا؟! ... أنتَ..

ـ أرجوك لا تفعل.

ـ أأنتَ تتحدث؟!

- لا تتركني وتنام.

أكل الصمت شفتيه في لحظة، من هول ما رأى، عيناه تتحرك باتجاهه، والدموع تتساقط منه.. جاءه الصوت من فَم الصبيّ:

- كم تمنيت أنْ يَحضر أحدهم ويحدِّثني!
- مَن؟
- أي أحد.
- لماذا؟
- تَعبتُ من الصمت.
- هل كنتَ تتحدث قبلًا؟!
- أجل.
- لم تكن، لقد كنت منذ زمن أبِيتُ في هذه الغرفة، ولم أكن أسمع لكَ صوتًا.
- أعلم.. وقتها البيت كان مأهولًا وأنتَ كنت صغيرًا، فلم تكن لتسمعني أما الآن.. فأنا وحيد.

اعترى (كمال) الهدوء قليلًا، وجلس على حافة الفراش، رافعًا بصره له، وقال:

- أتعلم مَن أنا؟
- أجل، أنت (كمال).
- يا للهول!
- لا تستغرب، لم يكن أحد أقرب لي منك يومًا.
- كيف هذا؟

- منذ جئت لهذه الدار لم يشدّ انتباهي أحدٌ مثلكَ، رأيتُ فيك الكثير مني، فتابعتُ كل أحَادِيثَكَ وتَحَرُّكَاتَكَ، وحزنت كثيرًا عندما رَحَلْتَ.
- لا أصدِّق.
- لمَ التعجب الآن؟
- لا أعلم ما الذي تقوله.
- الحقيقة، يا صديقي.
- إذًا، أنتَ حقيقة؟!
- ألا تراني أحدِّثك؟ ودموعي تتساقط على ثيابك؟
- أجل، لِمَ هي تتساقط باستمرار؟ إنْ كنتَ حقيقيًا، كف عن البكاء.
- لا أستطيع.. فأنا للأسى والحزن عنوان، جُبلت على ذلك.
- حقيقي، وليس لك اختيار؟!
- أجل.. مثلك.

اعتدل في جلسته (كمال)، وأخرج علبة الدخان، وأشعل سيجارة منها، وقال له بانفعال:

- مثلي!! كيف؟!
- هل تملك أنتَ الاختيار؟ تأكل وتشرب وتتحرك، ولكنك كالدُّمى في لعبة الحياة، لا تستطيع أنْ تَخرج عن مسارك، وإلّا تَحَطَّمْتَ.
- من قال ذلك؟! نحن البشر لنا كل الاختيارات.
- لا تخدع نفسك.

ـ لا أخدع، هذه الحقيقة، نحن من نَصنع عالمنا بإرادتنا.
ـ إذًا، أخبِرني ماذا صنعت لنفسك؟
شرد قليلًا في سؤاله:
ـ ماذا صَنَعْتُ فعلًا لنفسي؟ فمنذ أدركتُ، وأنا في دوامة الفقر والمسئولية، نحو أمي وأخوتي، وها أنا على أعتاب العقد الثالث من عمري، ولم أملك يومًا إرادتي.. لا في دراستي، ولا حتى عملي، يا للسخافة، حتى اليوم لم أملكها لحظة فَرَضَتْ أمي عليَّ هذا السفر.
قال الصبي:
ـ شردتَ في الإجابة التي لا تملكها.. لا عليك.
رد (كمال) هربًا:
ـ اخبِرني لِمَ قُلْتَ أنَّكَ للحزن عنوان؟
ـ القصة مثيرة يا (كمال).. لمَّا شاهد (جيوفاني براغولين) صبيًا بملابسه البالية، يبكي على الأرض وحيدًا، فاستضافه وأطعمه وسقاه، ورغم كل ما صنعه معه ظل الصبي حزينًا باكيًا باستمرار.. فقرر (جيوفاني) أنْ يصوغ هذا الشعور العميق مِن روح الصبي لوحةً تبوح به.. وقد كان.
ـ أهذا سر شهرتك، وانتشارها الواسع؟!
ـ الصدق يا (كمال) سرها.
ـ أظُنُّكَ أوجزت.
لسعهُ لهيب آخر السيجارة؛ كان مندمجًا في الحوار حتى نَسِيَهَا، ألقاها من يده على الأرض في توتر، واستدار له قائلًا:

- ولَكِنْ سمعت عنها الكثير من الروايات.
- مثل ماذا؟
- قيل إنها كانت تتسبب في احتراق كل بيت تدخله بعد أوان.. حوادث اشتعال غريبة في العديد من البيوت في شتى أنحاء أوروبا؛ حتى بيت (براغولين) نفسه لم يَسْلَمْ، والعجيب أنَّ اللوحة كانت الشيء الوحيد الناجي في كل مرة.
- ترهات، يُخْرِجُهَا البشر من جعبتهم كلما أرادوا إثارة.
- كيف ذلك؟
- يصنعون الأساطير من أشياء يصعُب عليهم هزيمتها، فيتواطئون بالأخبار والأحاديث، وكأنما كوارث العالم لا تكفيهم.
- لا أفهمك.
- اللوحات يا (كمال) مطبوعة على ألواح عالية الكثافة، يصعُب اشتعالها.. ألم أقل لك أنكم تجيدون التهويل والمبالغة.
- ماذا عَنْكَ؟ أليست دُمُوعُكَ المُنْهَمِرَةُ منذ عقودٍ تهويلًا ومبالغة؟!!
- أخبرتك يا صديقي من قَبل ليس لي اختيار.

وصلا لذات النقطة في الحوار، فساد الصمت، ولم يقطعه غير قول (كمال):

- قلت من قَبل أني أعنيك، ورأيتني أشبهك.
- أجل، كنت تلهو وتلعب مثلما كُنْتُ أفعل، وكأنَّ لا يعنيك العالم المارق حولك.. أظنها كانت أجمل أيامك يا صديقي، أليس كذلك؟

رد عليه متعجبًا:

- أجل، كيف عَرِفْتَ؟!
- كُنْتَ تنضح بالطهر والبراءة والفرح، كحال كل الأطفال،غير أنَّ للحزن علامات لا تُخطأ، رأيتها في كينونتك وقتها

لمْ يُعلِّق (كمال)، فأردف الصبي:

- حياتك منذ نشأتك أقرب للتعب، أَخَذَتْكَ من دون وعي إلى مدارات ربما لم تَعْرِفُها، وكان عَلَيْكَ الاستمرار فيها فرضًا، ربما امتدت بك نحو الفرح أحيانًا، وتصدَّعت منها وجعًا اوقات، لكن يبقى ضجيج أعماقك وتفاصيلك، هي جذرك الباقي للحياة
- فيسلوف صغير.
- لا، ولكن لغتنا مشتركة، وأرواحنا معلَّقة على ذات الباب.
- أتخبرني أنَّ مصائرنا متشابكة؟ ماذا عني، ألن أخرج من هذه الغرفة؟
- ربما!

ضحك (كمال) في سخريةٍ، وقال:

- هل سأصبح سجين لوحة مثلك؟
- رغم الانحناءات والانكسارات والتجاعيد التي أصابتك فكبرت قبل الأوان، لَكِنْ أراك أكثر نضارة مني، ربما لا يا (كمال)
- كيف ذاك؟
- تَهَوَّرْ.. ابتعد عن الفناء.

لم يفهم، فأردف له الصبي مجددًا:

- لا تنطفئ، ولا تَسْقُطْ فريسة الاكتفاء، عانق الحياة بتفاصيلها واصنع جِنَاحَيْكَ، ما يصنع الفارِق هو إنفلاتك الأعمق في اللحظة المناسبة، دع عنك الخوف، فقد أنهك عينيك يا (كمال).
- ألم تقل آنفًا أنَّ لا اختيار لنا؟
- من أراد التحرر، استطاع.
- ولكنك لم تقل ذلك؟
- لكل قاعدة استثناء، إنْ أرَدتَ، خرجت من الحريق بلا رماد.

بَرَقَتْ عَيْنَاهُ لما نطق الحريق، فرفع (كمال) صوته قائلًا:

- ها أنت تتحدث عن الحريق، قد لا يكون كل ما قيل عنك أكاذيب.

ابتسم الصبي قائلًا، وهو يبكى، والدموع تتساقط منه في اعتياد:

- (كمال) لا تصدِّق كل ما يُقال لك، صدِّق قلبك، وما يُخبرك به، وتَذَكَّرْ.. أنت لا ترى من الآخر إلّا ما يُرِيدُكَ فقط أنْ تراه.

فتح (كمال) عينيه فإذا بأمه فوق رأسه تهزه بشدة، وهي تردد:

ـ استيقظ يا بني.

نظر لها باستغراب، ونهض رافعًا بصره للوحة، فإذا بها كما هي.

ـ ربما كان حلمًا..

هكذا قال لنفسه..

قاطعه صوت أمه، وهي تقول له:

ـ هيا يا بني انهض، لتستحم، وتغيّر ملابسك، فقد اقترب موعد عَقد القَران.

نهض، وطبع قُبلة على جبينها، وقال:

ـ حاضر يا أمي.. هيا بنا.

تحرَّكا يغادران الغرفة، خرج (كمال)، وثيابه يعلوها الرماد، وتنبعث منها رائحة الدخان.